أجنحة الحلم والخيال في شعر محمد جمال عمرو في سؤال (ماذا لو؟)

د. بيان محمد جمال عمرو *

مقدمة

لا غروَ أنَّ هموم الشعر والشعراء التي قادتهم إلى أن يفتحوا لأنفسهم آفاقًا جديدة، ويسجِّلوا أسماءَهم في سِفْر الخلود، ما كان لها أن تكونَ إلَّا بِطاقَةِ الشعرِ المُعبِّرِ عن جوهرِ الإنسانِ، ويرتبط بكينونيّته وإنسانيَّته.

إنَّ المَناخَ الحُلْميَّ الضبابيَّ الذي يصنعُهُ الشعرُ، وينهضُ بمَعونَة اللُّغة الوفيَّة لمُسوِّغاتٍ جماليَّة ونوعيَّة خاصّة، تلك العابرة للحدود والخطوط، والمنضوية في الوقت ذاته تحت لواء اللحظة الحاضرة، لِتُسرِّبَ معنًى وجوديًّا عابرًا للزمن، يجعلُ للشعرِ تلكَ الطاقةَ الرؤيويَّة الخاصَّةَ، التي ما كانَ لها أن تكونَ ما لم يفتحِ الشاعرُ مَدَياتِ الرؤيا على الخيال؛ ذلك الخيال الذي يتفتّقُ عن صورٍ جديدةٍ، ويدفعُ بهمومِ الشاعرِ لتتجاوزَ العاديَّ والمألوفَ، وتسجِّلَ تلكَ التجربةَ الخاصّةَ، والعابرةَ للمكانِ والزمانِ في الوقتِ ذاتِه.

إنّ من شأنِ الخيالِ الذي يتفتَّقُ في نَفْسِ الشاعرِ أن يَنْحَمِلَ على جناحِ لغةٍ تنجحُ في أن تجعلَ من هذا الخيالِ في أبهى تَمَظهُراتِه.

فإن كانَ هذا شأنَ الخيالِ الذي أطلقَ لنا جُذْوةَ الشعرِ من عندِ أوّل النصوصِ التي وصَلَتْنا من الشعرِ العربيِّ، فالجديرُ بالقولِ إذنْ أنَّ الإنسانَ لا يمكنُ لهُ أن يعيشَ من دونِ خيالٍ، وأنَّ الأطفالَ أيضًا لا يمكنُ لهم أن يعيشوا من دونِ خيالٍ؛ بل أنَّ الخيالَ هو عاملُ أساسٌ في تَشَكُّلِ شخصيَّاتِهم، ونُموِّهِمُ العقليّ والنفسيّ والوجدانيّ.

وقد أدركَ الشاعرُ والأديب محمد جمال عمرو هذه الحقيقةَ مبكِّرًا، فدفعَ بِطاقَتِهِ الشعريَّة

* باحثة/ ناقدة، الأردن.

لإنعاشِ مكامنِ الخيالِ في عقولِ الأطفالِ، بل إنَّهُ أفردَ نصوصًا كاملةً تثيرُ زوبعةً من الأسئلةِ الجديدةِ؛ حتى ندخلَ نصًّا من نصوصهِ الشعريَّة للأطفال، فنراهُ يتقدَّمُ بتُؤَدَةٍ وهو يحملُ الطفلَ من عالمِ الواقعِ، ثم يُخرجُهُ من هذا المألوفِ في لحظةٍ سحريَّة، فنرى السقفَ قد انفتحَ، ليطيرَ الطفلُ نحوَ السماءِ، ونرى الأرضَ قد تبدَّلت، وظهرَ الماردُ.

وفي هذه العوالمِ الحُلْميَّة التي تطيرُ بِالطفل على جَنَاحِ الخيالِ والحُلْم، يؤثثُ محمد جمال عمرو عالمَهُ الشِّعريَّ للأطفالِ. لقد أخلصَ محمد جمال عمرو للطفولةِ ولِشعرِها، وبدأ مشوارهُ الأدبيَّ للأطفالِ بالشعرِ، واستمرَّ يمتَحُ من بئرِ إبداعِهِ العميقةِ، متخيِّرًا أرقَّ الكلماتِ، وأطيَبَها وقعًا في نفوسِ الأطفالِ. وحظيتْ موهبتُهُ الشعريَّة باهتمامٍ بالغٍ في أوساطٍ كثيرةٍ، أهمُّها التلقي الذي حظيَ به شعرُهُ من الأطفال العربِ أنفسِهم الذين كان يلتقي بهِم في أسفارهِ إلى أقطارِ العالمِ العربيِّ من محيطِهِ إلى خليجِهِ، ويقرأُ عليهم شيئًا من شعرِه، وقصائده التي يجدُها القارئُ في مناهجِ اللغةِ العربيَّة للأطفالِ في شتى الأقطارِ العربيَّة.

كما تناولت شعرَهُ أقلامُ الدارسين والنقّاد[1]، وقد قالَ في حقِّه رائدُ الكتابةِ للأطفال الراحل عبد التواب يوسف: هذا شاعرٌ، وناثرٌ، وناشرٌ للأطفال.. وقد أعطاهُم عُمرًا، وبذلَ من أجلهم الكثير، مما يستحقُّ عليه التقديرَ والإعجابَ.. خاصّةً وإنتاجُهُ لهم غزيرٌ، لكنَّهُ عميقٌ ومُتميِّزٌ... وكان أوّل ديوانٍ قدَّمهُ للأطفالِ بعنوان: (نسعى إلى مُستقبل) قد صدرَ في القاهرةِ... واستُقبلَ من جانبِ الأطفالِ باهتمامٍ كبيرٍ[2].

خيالُ الطفلِ الحالمِ وطاقةُ الشعرِ

يرسمُ الطفلُ عبرَ التخيُّلِ صورةً ذهنيَّة، لم يسبق لهُ أن أدرَكَها حِسِّيًّا، يحاولُ فيها أن يستعينَ بمُكوِّناتِ الواقعِ، ثمَّ أن ينتصرَ على هذهِ المُكوِّناتِ في الوقتِ ذاتِهِ؛ لينتقلَ النصُّ الشعريُّ بالطفلِ من معانٍ مُجرَّدةٍ إلى أفكارٍ وأخيلةٍ وأحاسيسَ جديدةٍ.

ولهذا تتعزَّزُ الفوائد التي تمنحُها الأحلامُ للأطفالِ؛ لأنها تأخُذُهُم إلى عوالمَ مرغوبةٍ، كما يحدثُ في الأحلامِ عند النوم، أو في أحلامِ اليقظةِ، بل أنَّ الأحلام "توفِّر مجموعةً فريدةً من الفوائد للكائناتِ الحيَّة القادرة على الحُلْم، ومن بينها البشر. ومن بين تلك الفوائد عمليةٌ كيميائيَّة عصبيَّة تُسْاهم في مواساة المرء وتخفيف أثر الذكريات المؤلمة، فهي مساحة من الواقع الافتراضيّ يخلط فيها الدماغ معارف الماضي والمستقبل على نحوٍ يحفز الإبداع" [3].

فإذا كانَ هذا هو الخروج عن المألوفِ الذي يتوخَّاهُ الطفلُ في العالَمِ الشعريِّ، فإنَّ ما يُنتَظَرُ من شعرِ الأطفالِ أن يخطوَ هذه الخطوة نحو عالمٍ تخييليٍّ، يُغني تشكُّلَ هذه المَلَكةِ العقليَّة عند الأطفالِ، والمُتمثِّلةَ بالخيالِ.

وهذا يعني أن يتجاوزَ الشاعرُ حدودَ المهمةِ التربويَّة إلى الفنيَّة، ذلكَ أنَّ الطفلَ لنْ يُقبلَ على الشعرِ الذي يَعِظُهُ، أو يكشفُ له منطلقاتِه التعليميَّة والتربويَّة والأخلاقيَّة، والأجدرُ بالشاعرِ الحصيفِ أن يغلِّفَ هذه المفاهيمَ بطابَعٍ فنيٍّ وخيالٍ خلَّاقٍ، يحلِّقُ بالطفلِ إلى عوالمَ جديدةٍ مُتخيَّلَةٍ، ويقول له ما يريد، ولكن وهو – أي الشاعر – يراعي ضروراتِ الشعرِ ولغتَهُ الفنيَّة. وقد ألحَّ شكري عياد على أهمية انجماعِ التربويّ إلى الفنيّ في أدب الأطفال، بل إنه يقول: "بل هو عملٌ فني أوّلًا. وكَمْ نشفق على الملايين من أطفالنا لأنهم لا يجدون إلا القليلَ من الأعمال التربويَّة، ولا يكادون يجدون شيئًا على الإطلاق من الأعمال الفنيَّة" [4].

والحديثُ عنِ الخيالِ في الشعرِ ليسَ جديدًا، وإن كانتْ دلالاتُ الاصطلاحِ قد تحوَّرَتْ منذُ ظُهورِها لدى الفلاسفةِ اليونانيِّينَ، مرورًا بالفلاسفةِ العربِ المسلمينَ، حتى استقرارِها بمعناها الحديث عند فلاسفة الرومانتيكيَّة[5]. ومعروفٌ أنَّ النقدَ القديم كانَ "يُقلِّل من شأن الخيال، ويرى ضرورة وصاية العقل عليه، وأنه كان يخلط بين الخيال والوهم" [6].

والخيالُ هو " مَلكَة أو قوة أو قدرة: استحضاريَّة أو توليفيَّة أو ابتكاريَّة. وهذه الصفات تؤكد المستويات المتنوعة/ والمتفاوتة للخيال"[7]، وقد قُسِّمَت في التعريف السابق على ثلاث[8]: "فهناك خيالٌ استحضاريٌ يتم من خلاله استحضار/ استعادة صور رأيناها من قبل أو أحسسنا بجزئياتها المتفرقة من قبل، فنحن نرى شاطئ البحر، وإذا أغمضنا أعيننا فإننا نراه أيضًا من خلال الخيال الاستحضاري. وخيالٌ تأليفيٌّ أو توليفيٌّ يتم من خلاله جمع أجزاء أحسن من قبل لتأليف شيء لم يُحسّ... وخيالٌ ابتكاريٌّ يتم من خلاله إبداع صورة جديدة تمامًا. صورة لم توجد من قبل".

دور الأدب التخييليّ في البناء السليم لشخصية الطفل

للأدبِ في حياةِ الأطفالِ دورٌ بالغُ الأثرِ في تكوينِهم وتشكيلِ شخصيَّاتِهم، وتشكُّلِ عاداتِهم، وقد سجَّلَ أدبُ الأطفالِ الجيِّدُ إنجازاتٍ مهمَّةً في تقويةِ المناعةِ النفسيَّة عندَ الأطفالِ، ورفعِ مستوى ثقتِهم في أنفسِهم، وتجاوزِ خَيْباتِهم ومخاوِفِهم.

وشكَّلتْ نماذجُ مهمةٌ كثيرةٌ دورًا في وقايةِ الأطفالِ وعلاجِهم أيضًا من مشكلاتِ القلقِ والخوفِ وفَقْدِ الآباءِ والطلاقِ، والتعاملِ مع المُعوِّقاتِ النفسيَّة والجسديَّة التي لا تخلو منها حياةُ طفلٍ مهما كانت ظروفُ نشأتِه وتفاصيلُ معيشتِه.

وتشيرُ النظريَّةُ متعددةُ الأبعادِ للشخصيَّة أنَّ الشخصيَّة المُتَّزنةَ هي حصيلةُ تفاعُلِ عواملَ بيولوچيَّةٍ ونفسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ تكوِّنُ سماتٍ مرغوبةً وسلوكيَّاتٍ مستقرةً. وأوَّلُ هذهِ المُكوِّناتِ هو المُكوِّنُ المعرفيُّ [9]، ويشمل هذا المكوّنُ "جميع العمليَّات العقليَّة التي تتمُّ في الدماغ، من تذكُّرٍ أو تركيزٍ وانتباهٍ وفهمٍ وتخيُّلٍ ومعرفة وإدراك وحل المشكلات، فكلما طوَّر الفرد هذا الجانب وعمل على تنميته بالوسائل المتاحة والبحث عن الطرق التي ترقَى به، كلما ساعد على ثبات واتزان شخصيَّته من الجانب العقليّ" [10].

وغالبًا ما يكونُ هنالكَ التباس في تحديد معيارِ الأدبِ الجيِّدِ للأطفال. تقولُ الأديبةُ والشاعرةُ البرتغاليَّة سيسيليا ميرايل إنَّ "الأطفال، في الحقيقة، هم الذين يُحدِّدون الأدب المفضَّل لديهم. لقد اعتدنا أن نصنِّفَ كل ما كُتب للأطفال على أنه "أدب طفليّ"، بينما الأصحُّ أن يكون التصنيف على أساس ما يقرؤأه الأطفال بفائدة وسرور[11].

وهذا شأنُ الأدبِ على تنوُّعِ أبوابِه، وتنضافُ إليه ما للشعرِ من مزيَّة خاصَّةٍ لها وقعُها في نفس الطفل "فالطفل بفطرته منجذب إلى الموسيقى والإيقاع، ويميل إلى الأدب الذي يُشبع فيه رغبته المُلحَّة إلى الفنّ بعامَّة، والأدب الغنائيّ بخاصَّة... وما يجري بها من إيقاع موسيقيّ، ونغم متدفق – الأثر المحمود في ترقية وجدان الطفل، واستعادة الثقة في نفسه وفيمن حوله؛، مما يزيد من إعجابه بالحياة، وحبه لها، ويدفعه من ثَمَّ إلى التعلق بها والعمل من أجل إنهاضها، وإسعاد غيره" [12]. وتؤكدُ سيسيليا ميرايل أنَّه لا وجودَ لأدبٍ طفليٍّ "سابق"، بل "لاحق"، وفي هذا الكلامِ تعطيلُ لفكرةِ المُحدِّداتِ التي قد يضعُها الكبارُ، ويجدونَها حاسمةً في مسألةِ ما الذي قد يكونُ ماتعًا ومفيدًا للطفلِ القارئ، وهو أيضًا إعادةُ الزِّمامِ إلى الطفلِ في تقريرِ ما يناسبُهُ عقب القراءةِ، لا أن تُفرض عليه النصوص باعتبارِ أنها مكتوبةٌ له، فيجد نفسه تحتَ حُكمٍ مسبقٍ بمواءمةِ هذا المكتوبِ لمزاجِهِ ونوازعِهِ وأشكالِ متعتِه.

وتشير بحوثٌ كثيرةٌ إلى أهميَّة إدخالِ المفاهيمِ الخاصَّةِ بالخيالِ والإبداعِ وحبِّ الاستطلاعِ مُجتمِعَةً في الممارساتِ التعليميَّة والتربويَّة، وإن كانت إحداها قد تُفضي إلى الأخرى؛ إذْ من شأنِ الخيالِ أن يفتحَ البابَ للإبداعِ، بالخروجِ من ربقةِ الواقعِ المُقنَّنِ، كما أشارتِ البحوثُ إلى ضرورةِ

وضعِ الإبداعِ والخيالِ وتذوُّقِ الجمالِ أبعادًا أساسيَّة تشتملُ عليها مناهجُ تعليمِ الفنونِ والآدابِ والرياضياتِ واللغةِ الثانيةِ والموسيقا[13].

ماذا لو؟ : سؤالٌ يفتحُ آفاقَ التخيُّلِ

ماذا لو طرَحْنا على أنفُسنا هذا السؤالَ، فقُلْنا: ماذا لو؟ ماذا لو لم يكُنْ هناكَ خيالٌ؟ ماذا لو لم يكنْ دماغُ الإنسانِ مُعدًّا لتصوُّراتٍ جديدةٍ، تأخذُ ببعضِ مُكوِّناتِ الواقعِ وتنفصلُ عنها في الوقتِ ذاتِه، أو تذهبُ بعيدًا لابتكارِ تصوُّرٍ جديدٍ؟

هل كان للإنسانِ أن يخترعَ؟ أو يتطوَّرَ؟ أو هل كان للإنسانيَّة أن تتقدّمَ؟ وتُوجِدَ سُبُلًا جديدةً للعيشِ؟

إنّ انطلاقَ الطفلِ بالأسئلةِ في مرحلةِ الذَّكاءِ الحَدْسيِّ المُبكِّرةِ من حياتِه تُكوّنُ لديهِ خبرةً حسيَّة حركيَّة، وتُمكِّنُهُ من استعمالِ التمثيلِ، وتطويرِ التفكيرِ التخيُّلِيِّ[14]، ويجعلُ من إلقاءِ الطفلِ للأسئلةِ لحظةً تظهرُ فيها "خصيصة التمركُز الذاتي لهذا الفكر على هذا المستوى الجديد من تمثيل الواقع مقابل منظومة العالم العملي (الذي يتحرر عند مستواه من تمركزه الذاتي)"[١٥]، وهو ما أُطلق عليه مفهوم "الأرواحيَّة Animism الطفوليَّة وهي الميل إلى تصور الأشياء حيَّةً ولها مقاصد" [16].

وهذا يعني تحرُّكَ الطفلِ من عالمِ التمركُزِ حول الذاتِ إلى مَدَياتٍ أوسعَ، مع ما تحملُهُ هذهِ المرحلةُ من خصوصيَّة لِمَلَكَةِ التخيُّلِ. وهي المرحلةُ التي يتحرَّكُ بينَ جنباتِها الأديبُ والشاعرُ محمد جمال عمرو، في قصائدِه محلِّ الدراسةِ هُنا، ليُثريَ عالمَ الخيالِ في أذهانِ الأطفالِ ما بينَ عمرِ السادسة حتى التاسعة؛ ففي ديوان "ماذا لو عندي مصباح؟" [17]، يتكثَّفُ حضورُ هذا التعبير اللغوي "ماذا لو"، فيفتح البابَ للأطفالِ لكي يُطلقوا العنانَ لِمَخْيالاتِهم في صورٍ جديدةٍ، أو تذهبُ بهم هذه العبارةُ لفهمٍ جديدٍ ومُسلٍّ لظاهرةٍ طبيعيَّة أو معرفيَّة.

ففي قصيدةِ "لو أنَّ الغيمة طيّارة" يجتمعُ طرفا الصورةِ من عندِ العنوانِ، في محاولةٍ لدفعِ الطفلِ إلى أقصى مناطقِ التصوُّرِ؛ إذ ما الذي سيجعلُ من الغيمةِ طيَّارةً؟ وما هي المُشتركاتُ؟

وهنا تبدأ الصورُ المتخيلةُ بالتَّوالُدِ من عندِ المُفتَتح "ماذا لو أنَّ الغيماتِ/ صارت مثل الطيَّاراتِ.. وهيَ بابٍ وشبابيكْ/ ذيْلٍ يُشبهُ عُرْفَ الدِّيك"[18]، وكلَّما تقدّمنا في القصيدةِ أكثرَ، نجدُ أنَّ الشاعر يُغنِي هذا العالمَ بالصُّوَرِ، ويُجدِّدُ فيهِ، ويسمحُ للطفلِ بأنْ يركبَ الغيمةَ، ويُلقي التحيَّة

على سِرْبِ حَمَامٍ، وحين تقتربُ الرحلةُ من آخرِها، لا ينسى فكرةَ المَنْحِ والإحسانِ "في رحلَتِنا كانَ العجَبُ/ حينَ اقترَبَتْ منّا سُحُبُ.. فالتمَعَتْ في الجوِّ شرارهْةْ/ وسقَطْنا مطرًا بِغَزارهْةْ.. قلتُ لطائرتي بمَودَّهْةْ.. شُكرًا، قد أسقيْتِ الوردهْة"[19]، وبهذا التناغُمِ اللطيفِ الذي يُشيعُهُ محمد جمال عمرو يجعلُ الطفلَ الذي يركبُ الغيمةَ جُزءًا منها فيما بعدُ، وأن يسقطَ مطرًا ويسقي الغيمةَ، فأنْ يذهبَ في عالمِ الحُلمِ والخيالِ لا يعني أنْ يغيبَ تمامًا عن مفرداتِ الواقعِ، بل أن يتمثَّلَها على نحوٍ جديدٍ.

وفي قصيدةِ "لو أنِّي طرزان"[20]، يأتي الشاعرُ بشخصيَّة لها حضورُها في الخيالِ عند الأطفالِ، وهي شخصيَّة "طرزان" التي ظهرت أوائلَ القرن العشرينِ في روايةِ الكاتبِ الأمريكيِّ إدغار رايس بوروز، لولدٍ يفقدُ والديْهِ رضيعًا ويعيشُ في الغابةِ، فتربِّيهِ القِردة "كالا". ويستثمرُ الشاعرُ فكرةَ المغامرةِ وحبَّ الاستطلاعِ بخاصَّةٍ عند الأطفالِ في عمر الثامنةِ والتاسعةِ، بهذا الاندفاع الذي يؤمنونَ فيه بتمكُّنِهم من إنجازِ أعمالٍ بطوليَّة، مثل القفزِ بين الأشجارِ، وملاقاةِ الأفيالِ والقرودِ، كي يفتحَ للطفلِ عالمَ الخيالِ والأحلامِ والتصوُّرِ.

وتأتي قصيدة "لو عندي منطاد"، بِبُعدٍ مُمتعٍ جديدٍ، وهو تشارُكُ الخيالِ، ودفْعُ لعددٍ من الأطفالِ لأنْ يتخيَّلوا معًا، وكم سيبدو الأمرُ حماسيًّا لو أنَّ الأطفالَ يمضونَ في هذه التجربةِ من التخيُّلِ الجماعيِّ، فيرتفعَ سقفُ الخيالِ أعلى من منطادٍ. يقولُ الشاعرُ من المُفتَتَحِ "ماذا لو عندي منطاد/ يستوعِبُ كُلَّ الأولاد.. نصعدُ، نعلو فوقَ الأرضِ/ أولادًا وبناتٍ نمضي.. يا هذا المنطادُ الرائعْ/ خُذْنا لنرى الكونَ الواسعْ"[21]، وبهذا تتَّسِعُ مساحةُ الخيالِ الحالمِ؛، ليتمنَّى الأطفالُ رؤيةَ الكونِ بجنّاتِهِ الأرضيَّة وأزهاورِه، وأنهارِه الجاريةِ وبُحورِه، إلى أن يصلَ الشاعرُ بالقصيدةِ إلى القولِ "وصحارى عن بُعدٍ تلمَعْ/ تشهدُ كَمْ خالقُها أبدَعْ"[22]؛ إذ تُهيِّئُ له هذه الأحلامُ المُتخيَّلَةُ أن يرى الجمالَ وروعةَ الخالقِ، وهنا مُجدَّدًا تتعزَّزُ قيمةٌ جديدةٌ تتمثَّلُ في الامتنانِ والشكرِ لله الخالقِ، وهي فكرةٌ تُعينُ على التأمُّلِ في الموجوداتِ وتُذَكِّرُ بالله الذي خلقها؛، وبهذا يصبحُ الخيالُ الحالمُ تذكيرًا. وبعدَ أن يرتفعَ المنطادُ، ويأخذَ الأولادَ فيعبُرَ بهم زمنًا إلى المستقبلِ، يُطالِبهُ الأولادُ بالعودةِ إلى الوطنِ.

ويمضي الشاعر محمد جمال عمرو مستثمرًا طاقةَ هذهِ العبارةِ "ماذا لو"، فنجدُه في قصيدة "الناي السِّحْريّ" مستحضرًا تخيُّلًا بصريًّا سمعيًّا في صوتِ الناي، وتتبدَّلُ الأحوالُ والصورُ والأماكنُ التي يحرِّكُ الأطفالَ القارئين والسامعينَ فيها، فيبدأُ عند "لو أملكُ نايًا سحريًّا/ يطلعُ منهُ

اللحنُ شجيًّا.. يدنو منِّي الطيرُ فأعزِف/ فيطيرُ سعيدًا ويرفرف"، وهنا تتولَّدُ في خيالاتِ الطفلِ حاجةٌ للبحثِ عن مُسوِّغاتٍ ودلالاتٍ أن يكونَ هذا الناىُ سحريًّا لا عاديًّا، فما هي المَهمّاتُ التي على الناىِ السحريِّ أنْ يُنجزَها؟

وهنا نتتبَّعُ مع الشاعرِ والأطفالِ حركةَ الولدِ والنّاىِ، فنرى ونسمع "أمشي في الدربِ على مهلِ/ فأرى فلّاحًا في الحقلِ.. يبدو من عينيهِ التعبُ/ لكن.. اسمع هذا عجبُ"[23]. وبالتأكيد أنَّ الطفلَ ينتظرُ هذا العجبَ ويزدادُ حماسُهُ لهذا الوعدِ بالعجَبِ "الناىُ السِّحريُّ انطلقَ/ بثَّ الفرحةَ.. أنهى القلقَ../ والفلَّاحُ غدا مسرورا/ وزرَعْنا في الحقلِ زهورا". وهنا يُشاركُ الولدُ الفلاحَ زراعة الألزهاور، ويبتهجُ الفلاحُ لهذا اللحنِ الشَّجيّ، ثم يأتي هذا التحوُّلُ، فيدفعُ الطفلَ مباشرةً نحو صورةٍ مُتَخَيّلَةٍ جديدةٍ، ليست بعيدةً عن الواقعِ، لكنّ الطفلَ يتمنَّى أنْ لو كانت مُخالِفَةً للواقعِ، ولو أنَّ الأمورَ تجري على غيرِ ما هيَ عليه، وهو في الحقيقةِ ما تحقِّقهُ مساحةُ الأحلامِ للأطفالِ وللكبارِ على حدٍّ سواء، حين تُفسِحُ المجالَ لتعديلِ الواقعِ وتغييرِه، يقول محمد جمال عمرو: "وأرى أطفالًا في القربِ/ يبكونَ لأهوالِ الحربِ.. أنفخُ في نايي وأُأَغنِّي/ فأواسي الروحَ من الحُزْنِ.. ويغنِّي الأطفالُ ونمضي/ ننثرُ ضحكاتٍ في الأرضِ"[24]، ورغم أنَّ الناىَ هنا يقتربُ من جانبِ كونهِ سحريًّا من أسطورةِ الناىِ الحزينِ، فإلّا أنَّه يحاولُ أن يبثَّ الفرحَ ويواسي الروحَ، ودلالة المواساةِ هنا وكأنَّها تطالُ الأطفالَ في الحربِ، كما تعني الطفلَ الذي ينفخُ في الناىِ، وكأنَّ الطفلَ يُتيحُ لنفسِهِ – ولو في الخيالِ– أن يتوحَّدَ مع أقرانِهِ في الحزنِ والفرحِ؛ فهو لا يريدُ لأحدٍ أن يبكيَ من الحزنِ.

يبقى أن نتخيّلَ معًا؛ كبارًا وصغارًا، ماذا لو وَجَدْنا مِصباحَ علاءِ الدين؟ ذلكَ الذي كان يفركهُ قليلًا فيخرجُ منه الماردُ قائلًا: "شُبِّيك ولبّيك"، ما مِن شكٍّ أنها فرصةٌ عظيمةٌ تنفتحُ لخيالِ الأطفالِ وأحلامِهم التي لا تنتهي، وهنا يمكن لنا أن نسمعَ من الأطفالِ أنفسِهم، وبعيدًا عن نصِّ القصيدةِ خيالاتٍ وأحلامًا كثيرةً عمَّا يأملون أن يطلبوهُ من الماردِ لو أنَّهم عثروا على المصباحِ. لكنَّ الشاعر هنا يُعزِّزُ هذهِ الفرصةَ في التخيُّلِ بِأنْ يفتحَ البابَ للحوارِ بين الماردِ والطفلِ، ويضع عنوانًا للقصيدة: "أنا والمارد"، إذن يبدو من الممكنِ أن يُحِلَّ كلُّ طفلٍ نفسَهُ محلَّ المارد، وأن يذهبَ في خيالِهِ بعيدًا فيتخيَّرَ منه ما يمكنُ أن يطلُبَه من الماردِ؛ فالماردُ كما في القصيدة "لا يُعجزه شيءٌ أبدًا". وأمامَ هذهِ القُدرةِ المفتوحةِ على كلِّ الممكناتِ التي لا يحدُّها عائقٌ، يطلبُ الولدُ من الماردِ أن ينفِّذَ له أمرًا بالحالِ، وهوَ "أَنْ يُسعدَ كُلُّ الأطفال".

إنَّها الأمنيةُ التي كتبَ من أجلِها الشاعرُ محمد جمال عمرو كلَّ قصائدِه للأطفالِ، وهي الأمنيةُ التي يختمُ بها قصيدَتَهُ "أنا والمارد" في جملةٍ شعريّةٍ واحدةٍ مع أمرٍ مُلزِمٍ للمارد "نفِّذْ لي أمري في الحال".

ولا تنقطعُ هذه الجملُ الشعريَّة التي تحملُ دعواتٍ للتخيُّلِ والحُلْمِ من جانبٍ كبيرٍ من مُنجَزِ الشاعرِ محمد جمال عمرو، إلَّا أنَّ الوقوفَ على تفاصيلِها لا تحتملُهُ دراسةٌ واحدةٌ.

بهذا النَّفَسِ الشعريِّ يمضي محمد جمال عمرو في توسيعِ عوالمِ الخيالِ والحلمِ للأطفالِ، وفي حلحلةِ قيودِ الواقعِ التي تتربّصُ بهِم وببراءتِهِم، فيكتب لهم ومن أجلِهِم؛، ومن أجلِ أن تبقى عيونُ الأطفالِ مُلتَمِعَةً بالأملِ، فلا يُطفِئُ هذا البريقَ شيْءٌ أبدًا.

المراجع

1. چان بياچيه، التطور العقلي لدى الطفل، تر: سمير علي (1986)، بغداد: دار ثقافة الأطفال.
2. حجازي، سناء نصر (2009)، علم النفس الإكلينيكي للأطفال، عمَّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
3. سيسيليا ميرايل (1997)، مشكلات الأدب الطفليّ، تر: مها عرنوق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
4. شعراوي، إبراهيم (2005)، دراسة عن أعمال الشاعر الكاتب محمد جمال عمرو و(حلم العروبة والحرية) للأطفال، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
5. عبد الحميد وخليفة، شاكر وعبد الله (2000)، دراسات في حب الاستطلاع والإبداع والخيال، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
6. عبد الفتاح وأبو العينين، إسماعيل ورانية حسن (2011)، معايير قياس جودة كتب الأطفال (محددات/ انتقاء/ اختيار/ نقد/ تحليل)، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع.
7. عمرو، محمد جمال (2019)، ماذا لو عندي مصباح؟، الأعمال الشعرية الكاملة (1)، رسوم: جميل الوردي، المغرب: منشورات الحلبي.
8. عياد، شكري محمد (1971)، الأدب في عالم متغير، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
9. الكوفحي، إبراهيم (2013)، شعر محمد جمال عمرو للأطفال: محاور المضمون وظواهر التشكيل الفني، عمَّان: دار المأمون للنشر والتوزيع.
10. لالي، عبد الله (2020)، محمد جمال عمرو: أمير شعراء الطفولة بلا منازع، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
11. ماثيو ووكر (2019)، لماذا ننام: اكتشف طاقة النوم والأحلام، تر: الحارث النبهان، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

12. الماضي، شكري (2011)، مقاييس الأدب: مقالات في النقد الحديث والمعاصر، دبي: دار العالم العربي للنشر والتوزيع.

13. هلال، محمد غنيمي (1973)، النقد الأدبي الحديث، بيروت، دار الثقافة؛ دار العودة.

انظر على سبيل المثال لا الحصر: لالي، عبد الله (2020)، محمد جمال عمرو: أمير شعراء الطفولة بلا منازع، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر؛ شعراوي، إبراهيم (2005)، دراسة عن أعمال الشاعر الكاتب محمد جمال عمرو و(حلم العروبة والحرية) للأطفال، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية؛ الكوفحي، إبراهيم (2013)، شعر محمد جمال عمرو للأطفال: محاور المضمون وظواهر التشكيل الفني، عمَّان: دار المأمون للنشر والتوزيع.انظر: شعراوي، إبراهيم (2005)، دراسة عن أعمال الشاعر الكاتب محمد جمال عمرو و(حلم العروبة والحرية) للأطفال، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، مقدمة الكتاب للأستاذ عبد التواب يوسف، ص7–9.انظر: ماثيو ووكر (2019)، لماذا ننام: اكتشف طاقة النوم والأحلام، تر: الحارث النبهان، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ص 15.عياد، شكري محمد (1971)، الأدب في عالم متغير، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص 176.

انظر: هلال، محمد غنيمي (1973)، النقد الأدبي الحديث، بيروت، دار الثقافة؛ دار العودة، ص 161–162.

المرجع السابق نفسه، ص 162.

الماضي، شكري (2011)، مقاييس الأدب: مقالات في النقد الحديث والمعاصر، دُبي: دار العالم العربي للنشر والتوزيع، ص 70.

انظر: المرجع السابق، ص 70.

حجازي، سناء نصر (2009)، علم النفس الإكلينيكي للأطفال، عمَّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ص45.

المرجع السابق، ص 45.

سيسيليا ميرايل (1997)، مشكلات الأدب الطفليّ، تر: مها عرنوق، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ص 26.

عبد الفتاح وأبو العينين، إسماعيل ورانية حسن (2011)، معايير قياس جودة كتب الأطفال (محددات/ انتقاء/ اختيار/ نقد/ تحليل)، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ص 19.

انظر الإشارة إلى نتائج دراسات كل من " واتيتكومب" A. Whitcombe، و "شدلين" Shedlin، و"دانيس" Danesi، على سبيل الذكر لا الحصر، في: عبد الحميد وخليفة، شاكر وعبد الله (2000)، دراسات في حب الاستطلاع والإبداع والخيال، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص133.

14. انظر: چـجان بياچـجيه، التطور العقلي لدى الطفل، تر: سمير علي (1986)، بغداد: دار ثقافة الأطفال، ص 41.

15. المرجع السابق، ص 44.

16. المرجع السابق، ص 45.
17. انظر: عمرو، محمد جمال (2019)، ماذا لو عندي مصباح؟، الأعمال الشعرية الكاملة (1)، رسوم: جميل الوردي، المغرب: منشورات الحلبي.
18. انظر: المصدر السابق، ص 6.
19. انظر: المصدر السابق، ص7.
20. انظر: المصدر السابق، ص 20–21.
21. المصدر السابق، ص 24.
22. المصدر السابق، ص 24.
23. المصدر السابق، ص 36
24. المصدر السابق، ص 37..